كلمة لا بدّ منها

شاءت الأقدار ألاّ ترى هذه المذكّرات النور في حياة صاحبها. فبعد أن انتهى والدي من تأليف الكتاب في الثمانينيّات، وقد بذل جهدا كبيرا لاستذكار وتدوين أحداث يرجع تاريخ بعضها إلى أكثر من خمسين عاما خلت، ارتأى التريّث بعض الوقت قبل نشره.

وتتالت الأحداث العائليّة ومرّت السنون، وتوفّي الوالد، رحمة الله عليه، والمذكّرات لا تزال تنتظر من يتمم ذلك العمل الهائل الذي قام به، وكان شديد الحرص على أن ينشر ويوزّع ليكون خاتمة أعماله في هذه الدنيا.

فأخذت على عاتقي أن أقوم بهذا الواجب لعدّة أسباب، أوّلها وفاء لوالدي وإرضاء لرغبته الأكيدة وإرادته الثابتة في نشر مذكّراته، يقينا منّي بأنّ الوقت قد حان لنشرها. وثانيها يكمن في محتوى هذه المذكّرات وأهمّيّتها بالنسبة لنا اليوم. إنّها بلا شكّ جزء من تاريخ سورية المعاصر يروي أحداثه رجل عاش تلك الأحداث من داخل النظام القضائيّ والإداريّ اللذين خدمهما وعمل على إصلاحهما ما استطاع، ويسرد لنا تلك الوقائع بكلّ أمانة وإخلاص، ملقيا نظرة ثاقبة على الأحداث، محلّلا تارة ومستخلصا العبر والفوائد تارة أخرى. فيا له من ضياع أليم وخسارة فادحة لو أنّ هذه الصفحات من تاريخ قضائنا وإدارتنا بقيت منسيّة على رفوف مكتبتي، وحرم بالتالي من لذّة قراءتها كبارنا الذين عايشوا بعضا من أحداثها، أمدّ الله بحياتهم، وشبابنا الذين يتوقون للتعرّف على كلّ ما يتعلّق بماضيهم القريب.

عندما صدر مرسوم تسريح والدي عام ١٩٥٩، لم يكن في عمري أكثر من ثمانية أعوام. وذكرياتي المتعلّقة حصرا بمنصبه وعمله ووظيفته آنئذ تقتصر على صور غير واضحة المعالم عن أمور سطحيّة جدّا تعلق بذهن طفل صغير، كالسيّارة الرسميّة السوداء مع السائق والمرافق العسكريّ والتي كان وجودها يسبّب لي بعض الحرج والخجل أمام رفاقي في المدرسة، أو تلك الأعداد الهائلة من الزوّار، من شخصيّات سياسيّة بارزة ورؤساء بعثات دبلوماسيّة ورجال دين من الديانات السماويّة الثلاث بمختلف طوائفها وغيرهم ممن كانوا يتوافدون إلى بيتنا للتهنئة في المناسبات والأعياد منذ الصباح وحتّى نهاية النهار، فكان منظر صالة الاستقبال وهي تغصّ بهم وصوت والدي يبرز وسط الضوضاء والأصوات الأخرى مودّعا هذا ومستقبلا ذاك، كلّ ذلك كان يدهشني ويرعبني بعض الشيء. وهناك كذلك صور عالقة في ذهني عن سهرات «الكوكتيل» والعشاء التي كانت تقام في بيتنا ويدعى إليها رسميّون وغير رسميّين، وكنت أضطرّ مكرها للظهور أمام الضيوف والسلام عليهم، أو تلك السهرات التي كان والداي يدعيان لحضورها خارج البيت، فكنت أشاهدهما وهما يتهيّآن لها ويتحوّلان أمام المرآة، كما في حكايات الأطفال، من «بابا» و«ماما» إلى أمير وأميرة أو إلى نجمي سينما. الوالد يرتدي بدلة غامقة اللون وأحيانا «السموكينغ» الرسميّ، والوالدة تستعرض طويلا فساتينها و«تايّوراتها» قبل أن تختار الملائم منها لتلك السهرة.

أمّا الصور الأخرى المخزونة في ذاكرتي من تلك الأيّام والمتعلّقة بوظيفة والدي فهي ترتبط بتنقّلاتنا بالسيّارة ومشاهد رجال الشرطة وهم يؤدّون التحيّة له عند مرورنا أمامهم في مفترقات الطرق. وكذلك الأمر عند نقطة الحدود السوريّة اللبنانيّة التي كنّا نعبرها عدّة مرّات في العام، قاصدين في أكثر الأحيان دار عمّتي في زحلة. هذا تقريبا كلّ ما في ذاكرتي من أيّام الطفولة، فيما يتعلّق بعمل والدي الوظيفيّ وبمنصبه. بالطبع هناك

العشرات والعشرات من الذكريات الأخرى والصور العديدة والمواقف العاطفيّة التي تكتظّ بها ذاكرتي، إنّما هي صور وذكريات عائليّة لا علاقة لها بكتابه هذا.
لذلك كلّه أيضا، قرّرت إتمام العمل وإصدار الكتاب الذي أنهى والدي تأليفه منذ سنوات، وأردت أن أكون أنا من يرقنه على الحاسوب ويعالج نصّه وصوره ووثائقه وينظّم صفحاته، وذلك في محاولة للتقرّب أكثر من الوالد وسبر أغوار شخصيّته الفذّة. ويا لها من متعة وفائدة كبيرتين. ففي كلّ مرّة جلست فيها لرقن بعض الصفحات أو لمعالجة وتنظيم بعض الصور، خرجت بعبرة ودرس، وزدت فخرا واعتزازا بأن أكون ابن ذلك الرجل الأبيّ الشهم المستقيم، الذي وضع خدمة بلاده وقضاء بلاده فوق كلّ اعتبار، فلم يحن رأسه يوما أمام أحد ولم يمدّ يده يوما لأحد، إنّما عمل بكلّ نزاهة وتجرّد طيلة أكثر من ثلاثين عاما، لم يجن فيها ثروة ولا جمع مالا، إنّما حفظ له ولنا من بعده اسما نحمله مرفوعي الرأس. فيكفيني شرفا أن أعرّف بنفسي قائلا : أنا ابن حنّا مالك.
عودة إلى المذكّرات ومحتواها باختصار، فهي تنقسم إلى ثلاث فترات زمنيّة : الفترة الأولى هي حياته القضائيّة وتنقسم بدورها إلى عدّة أقسام حسب تدرّجه في درجات القضاء المختلفة، والفترة الثانية وهي المتعلّقة بالعمل الإداريّ وتمتدّ حتّى إنهاء خدمته زمن الوحدة. وبعدها يرد قسم يتحدّث فيه الوالد بإيجاز شديد عن المحاماة التي مارسها بعد تقاعده. أمّا القسم الثالث فيتطرّق فيه والدي إلى التعريف بالكنيسة والطائفة المسيحيّة العربيّة الأرثوذكسيّة التي قدّم لها جليل الخدمات، وينوّه كذلك بالماسونيّة ونشأتها في سورية إذ أنّه كان قطبا من أقطابها البارزين قبل أن يصدر قرار بمنعها. وهنا يأتي قسم خاصّ لبعض المراسلات والوثائق الرسميّة وكذلك بعض رسائل التقدير أدرجتها أصليّة مصوّرة كما هي دون إعادة كتابتها، لكي تبقى لها خاصّيّتها التاريخيّة. وبعد ذلك، وبالرغم من أنّ المذكّرات تتعلّق، كما يقول الوالد ويكرّر، بحياته الوظيفيّة، فإنّه أبى أن يختم كتابه دون تخصيص فصل يلخّص فيه سيرته الذاتيّة وتاريخ آل مالك. وفي النهاية كتب صفحات على شكل رسائل مشحونة عاطفة وحنانا وإخلاصا ينوّه فيها بمن سبقوه إلى الحياة الآخرة ولكنّه لم ينسهم قطّ ولم ينقطع عن ذكر خصالهم الحميدة حتّى آخر يوم في حياته. إنّهم أبواه جدّاي وأخوه الكبير عمّي وزوجته والدتي الحبيبة، رحمهم الله.
وقد ارتأيت إضافة قسم في آخر الكتاب خاصّ بالأوسمة الرفيعة العديدة التي تقلّدها الوالد وكان فخورا جدّا بها. إنّ كلّ من دخل دارنا في دمشق لا يمكنه أن ينسى تلك الصورة الكبيرة المعلّقة في صدر قاعة الاستقبال وفيها والدي حاملا معظم أوسمته والفخر يبدو جليّا في عينيه، ومن هذه الصورة اقتبست الغلاف .
وفي نهاية الكتاب، أجريت جردا بأسماء الأعلام الواردة في أقسام المذكّرات، وما أكثرها، مرتّبة حسب تسلسلها الأبجديّ مع أرقام الصفحات التي وردت بها.
وهنا وقبل أن أنهي كلمتي هذه، لا بدّ لي من التعبير عن حسرة كبيرة وأسف شديد وحزن عميق: كم كنت أتوق إلى أن يكون أخي عبدالله حاضرا معي ومع أختي هند، نستشيره على سبيل المثال في موضوع ذكر اسم فلان أو عدم ذكره، أو في ضرورة حذف الحادثة الفلانيّة تجنّبا للتجريح، فهو كبيرنا وأكثرنا معرفة بالوالد ودراية بذكرياته. إنّما مشيئة الله كانت غير ذلك. فحمدا لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ورحماته عليك يا أخي

العزيز.

وتخليدا لذكرى حنّا مالك، فسأعمل قريبا على إنشاء موقع له على شبكة الإنترنت، أدرج فيه مقتطفات موجزة من سيرته ومن مؤلّفاته، بالإضافة إلى بعض الصور والتسجيلات الصوتيّة.

ولا بأس في النهاية من كلمة أخيرة وأمنية غالية أطلقها بمناسبة صدور هذا الكتاب، علّها تجد آذانا صاغية: إنّ سورية التي أحبّها حنّا مالك حتّى العبادة وخدم قضاءها وإدارتها بكلّ ما أوتي من قوّة وأمانة وتجرّد تامّ، آمل ألاّ تبخل عليه بمنح اسمه لأحد شوارع عاصمتها دمشق التي أحبّها وسكنها وتوفّي ودفن فيها. إنّه وسام أخير تعلّقه سورية وقضاء سورية ومدينة دمشق على صدر ابنها البارّ حنّا مالك.

في ٣٠ تشرين الأوّل ٢٠٠١

نبيل

في الوسط الوالد حاملا آن صوفي، إلى يساره عبدالله حاملا جان نيقولا، وإلى يمينه نبيل حاملا كارولين

المرحوم والدي والمرحوم أخي في زيارة عائليّة لي في فرنسا، صيف ١٩٨٤